

في الأدب المقارن

الحرب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ غفرى أبو السعود

حب الحياة والإقبال على متعتها والرغبة في التكثر من خيراتها
مركب في طبائع الأحياء . وليس لحاجات الحي ورغباته ومطامحه
نهاية ، بل تبقى له حاجة ما بقي كما قال الشاعر ؛ والنزاع بين الأحياء
على خيرات الحياة من أجل ذلك متصل لا يفتر ، وهيهات يفتر وحب
الخلاف والنزاع والجلاد ذاته بعض طبائع الأحياء ، والشغف
بالقلب والنخائل بالقوة والزهو بالسيادة من أكبر مطامع الأحياء
والإنسان خاصة ، ومن ثم عرف الإنسان الحرب من أول عصوره
واشتغل منذ هجمته بمكافحة الأحياء من الوحش ومن أبناء جنسه ،
وتم له النصر من قديم على أمة الوحش ، وما تزال معارك الإنسان
مع أخيه - أو عدوه - الإنسان متصلة تشب بين حين وحين

وقد كابد الإنسان في شتى العصور أهوال الحروب . وعلم علم
اليقين عواقبها الوخيمة ؛ بيد أنه لم يستطع بعد أن يبتذها ، لقيامها على
غرائز في طبعه راسخة متأصلة ، ولما تليح به أمام عينيه من مزايا
النصر ومقائمه ومجده ولآلئه ، ومن ثم كانت مهمة دعاة السلم من
أشق المهام ومطلبهم من أبعد المطالب ، وقد هبوا في الفترة بعد الفترة
ينددون بالحرب وبلاياها ومفباتها ، فكانت صيحاتهم تترك صداها
في نفوس الكثيرين ، لا سيما في أعقاب الحروب الطاحنة التي
أهلك الحث والنسل ، ثم لا تلبث غرائز الإنسان الفطرية أن
تعاوده على أشدها ، وتبدأ الأمم سيرتها الأولى من الطمع والتفاني
وتحكم القوة التي لا يفصل سواها بين المطامع المتضاربة

وللحرب آثارها المشهودة في أدب كل أمة بلا استثناء . ولتلك
الآثار ثلاث نواح : للحرب أولا من أهم وسائل اتصال الأمم
واختلاط الأفكار وتلاقح الثقافات ؛ وهي ثانياً وحى الجمل الفقير من
نظم الشعراء ونثر الكتاب الواصفين لوقائعها وسلاحها ورجالها ،
المجدين لأبطالها وانتصاراتهم ، المفاخرين بما كان دجر الأعداء
وحماية الذمار وسلامة الشرف الرفيع من الأذى ؛ والحرب من
جهة ثالثة أروحت بأثار أديّة شتى في تفيض القتال ، وتسقيت إعدام

هذا التسليح . بل ترى فيه تحدياً وتهديداً خفياً لها لتأييد السياسة
التي ترى إلى حرمانها من مستعمراتها ومطامعها الاستعمارية
والاقتصادية المشروعة ، وأما رومة فلا تشك أنه موجه إليها
توجيهاً مباشراً لحرمانها من ثمرات تفوقها العسكري وانتصارها
في الحبشة وتهديد سلامة إمبراطوريتها الاستعمارية التي كسبتها
بسيافها ، ولذلك رأينا المجلس الفاشستي الأعلى يجتمع بسرعة
ويقرر مواصلة التسليح دون هدنة أو توقف ، وإن يترك فكرة
الاتفاق على تحديد التسليح نهائياً ، وسيقترن هذا القرار بإجراء
مناورات بحرية وجوية كبرى في مياه المضيق الواقع بين طرابلس
وصقلية ، وهو المضيق الذي قد تفكر إيطاليا في إغلاقه في حالة
الحرب لتقطع المواصلات البريطانية في البحر الأبيض المتوسط
وهكذا نرى معركة التسليح تضطرم بين الدول الكبرى .
ولا ننس أن فرنسا قد أقرت كذلك برنامجاً هائلاً للتسليح ، وأن
روسيا السوفيتية قد دججت سلاحاً وأضحت أقوى دول القارة .
بيد أنه مما لا ريب فيه أن للتسليح البريطاني آثاراً يغتبط لها أنصار
السلم ، ذلك أن بريطانيا لا تطلب مزيداً في السلطان والملك ،
ولا تفكر في فتوحات أو غزوات استعمارية جديدة ، وإنما تريد
الدفاع عن إمبراطوريتها القائمة ، ومقاصدها الدفاعية ظاهرة
لا ريب فيها ، وفي وسع بريطانيا متى أتمت تسليحها واستكملت
قوتها أن تغدو بمالها من الكلمة النافذة والقوة المهروبة عاملاً
حاسماً في استتباب السلم العالمي (٥٥٥)

كتابان جديدان

الشخصية

التربية الانكليزية

تأليف الاستاذ محمد عطية الابراشي

أول كتابين ظهرا في اللغة العربية عن المثل الأعلى
للشخصية الانسانية ، والتربية الانكليزية الاستقلالية في
البيت والمدرسة . وهما خلاصة عشرات من الكتب .

وثن الأول ٨ ، والثاني ١٣

بطلان من ملزمة نصرها

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

الإنسان على الانسنان، والحض على السلم والدعوة إلى الاخاء والصفاء وإن كان أثر هذه الدعوة في الأدب أقل كثيراً مما فيه من الترنم بمجد الانتصار والتغنى بالجز والغلب، ولم تكثر آثار تلك الدعوة في الأدب إلا في العصر الحديث

وكل هاتيك الآثار بينة في الأدبين العربي والإنجليزي، فقد خبت الامتان وأوضعتا في مجال الحروب. وكان بين كل منهما وبين جيرانها وأعدائها ملاحم ومواقع جسام، وشهد أديبا قيام نهضة حرية عظيمة وتشديد إمبراطورية واسعة، وأنجبت كل منهما عظماء القادة وحازت مشهود الانتصارات، وذقت أحياناً مرارة الهزيمة، ووقفت مراراً حيال الأخطار الجاثمة التي تهدد كيانهما وحريةها وتقاليدها، وشهدت الكثير من أمثال هذا كله يجري بين الدول المجاورة والأمم المعاصرة لها، وعلى كثرة ما يحتويه الأدب الإنجليزي من آثار كل ذلك فإن ما في الأدب العربي منه أكثر، وذلك لأسباب عديدة:

فأولاً ارتقى الأدب العربي وتوطد والأمة العربية ما تزال منشقة متناضلة، تتفاخر قبائلها بأيامها وانتصاراتها، أما الأدب الإنجليزي فلم يبلغ عظمته إلا في ظل القومية الموحدة، ولم تنشق الأمة على نفسها ويمتشق بعضها الحسام لقتال بعض إلا مرة واحدة في عهد الصراع بين الملكية المطلقة والنظام الدستوري، وهي الفترة التي أنجبت القائد العظيم كرومويل، وفيما عدا ذلك يمتاز التاريخ الإنجليزي بخلوه من الحروب الأهلية

وثانياً كانت الحروب أكثر طروءاً في تاريخ العرب منها في تاريخ الإنجليز. حتى بعد توطيد الإمبراطورية: فإن تلك الإمبراطورية ظلت - ما دامت لها قوتها - تجالذ أعداءها في الدين من روم ووثنيين، حتى إذا ما وهنت قوتها انقسمت على نفسها، وكثرت في داخلها المويلات والحروب

وثالثاً لأن كثيراً من أعلام الأدب العربي كعنترة وقطرى بن الفجاءة والخنبي وأبي فراس، كانوا جنوداً يشهدون الوغى ويتمدحون بمآثرهم فيها، وقل من أديباء الإنجليزية من كان كذلك، بل لقد ذكر أن المقاتلة في عهد التلاحم بين علي ومعاوية والخوارج كانوا إذا تهادنوا ليلاً تقابلوا قنابل الأصفياء يتناشدون الأشعار

ورابعاً كان جل شعراء العربية المتأخرين متصلين بالأمراء والفراد، فلم يكن لهم ندحة عن وصف أعمال مدوحهم الحربية كان العرب في الجاهلية في قتال لا يكاد يهدأ، وكانت بين قبائلهم وأشرافيهم ثارات وعداوات لا تكاد تنتهي حتى اضطروا أن يتخذوا

لهم موضعاً حراماً ووقتاً حراماً ما تهدأ فيه الخصومات وتغمد الصوارم وتتصل أسباب الحياة والتعاون، وبالتمدح بالنصر في تلك الحروب والتفاخر بأيامها والتواعد والتربص، كان أكثر ما قيل من شعر في الجاهلية. وظلت لهذا الباب من الشعر المسمى بالخماسة مكانته بعد انقضاء عهد الجاهلية بطويل، وبه بدأ أبو تمام مختاراته الشعرية وبه سماها، وكثر في الشعر الجاهلي ذكر السيوف والرماح والخيول وغيرها من وسائل الحرب، وكثرت في العربية أسماؤها وأوصافها، وارتقى بين العرب البصر بالحروب وتأصلت فيهم ملكاتها، حتى أخرجت الجزيرة صناديد الاسلام الذين اصطلبوا كتاب قصير وآل ساسان، ومن الشعر الذي يعرض صور حروب ذلك العهد معلقة عمرو بن كلثوم التي يقول منها:

على آثارنا يبيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أينا

وكانت الرسالة النبوية، وكان صاحبها يجمع إلى عبقرياته العظيمة المتعددة التي لم تجتمع لإنسان، البصر بالحرب والبلاء فيها فتختلف في أشعار ذلك العهد ولا سيما شعر حسان أثر ما كان بين المسلمين والكفار من كفاح؛ حتى إذا ما وحد الاسلام قلوب العرب انصرفوا إلى جهاد أعداء الدين، ومن عجب أن عصر الفتوح الباهر الذي تلا ذلك لم يترك في الأدب العربي إلا أثراً ضئيلاً. وليس امتلاء النفوس برهة الدين هو كل السبب في ذلك، بل يرجع ذلك أيضاً إلى جدة الحالة التي وجد العرب بها أنفسهم: من قتال أمة مخالفة لهم في الجنس واللسان والمسكن ووسائل القتال، ولعلمهم لم يجدوا من اللذة والقبلة ودواعي الفخار في اجتياح تلك الجيوش المرتبة، ما كانوا يجدونه في مصارولاهم البدوية المملوءة بالكر والفر والمساجلات الفردية.

وأهم من هذا وذاك أنهم لم يتعودوا الفخر بالأعمال القومية، التي يشترك في فخارها المضري والبكري والتغلي، ولم يتعودوا أن ينظموا القصيد في الفخر على أنجمن، وإنما هم كانوا يترفعون على الأعجمي ترفعاً بديهاً بسيطاً لا يتكلفون له عناء النظم، ولا يحفون بالقول، وآية ذلك حكاية الأعرابي الذي سئل: أنجب أن تكون ابن أعجمية ولك قصر في الجنة؟ فقال: لا أحب اللوم بشيء. قيل: فإن أمير المؤمنين ابن أمة، قال: أخزى الله من أطاعه!

إنما كان الفخر كل الفخر عند العربي في الظفر بعربي مثله، من قبيلة معادية لقييته، قد توارثت قبيلتهما العداوة والتراث جيلاً بعد جيل. وما هي إلا أن دمع الفتنة من جديد بين العرب حتى

وتفوق بعضها جزالة وتجويدا، ومن جيدها وصفه لخيل سيف الدولة الذي منه :

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدا وما عدوا أن السهام خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرح من تحت وصهيل
كنايب يطرن الحديد عليهم فكل مكان بالسيف يسيل
ومن جيد وصف الأساطيل قول ابن هاني الأندلسي :

أنافت بها أطامها وسماها بناء على غير العرام مشيد
وليس بأعلى كبكب وهو شاقق وليس من الصفاح وهو صلود
إذا فرت غيظا قد ترامت بماوج كما شب من نار الجحيم وقود
ولم يقتصر ذكر الحرب على مواضعها الخاصة بها، ومناسباتها
بين الحين والحين، بل كان أمرها من الشمول والاتصال والحضور
في أذهان الناس بحيث تسرب ذكرها في شتى أبواب الأدب،
واستعيرت صفاتها وأحوالها لختلف الأغراض : ففي النسيب
استعيرت السيوف والسهام للجفون واللواحظ، والقتل لشدة التميم
وبالسيف شبه الممدوح صفلا ومضاء وبه جرت الأمثال قليل : سبق
السيف العذل، وشبه المتنبي المتن بعدو لا تجدى المشرفة والعوالي في
قتاله، ولا تنجى السوابق المقربات من خبيه، وقرن التمدح بالبلاد
في الحرب بالتشبيب، كما كان يفعل عنترة، وكما قال أبو عطاء السندی
وهو البيت الذي تمثل به صلاح الدين الأيوبي في بعض رسائله :

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت منا المنقطة السمر

وفي الأدب الإنجليزي أوصاف رائعة للحروب، وتمجيد شائق
لابطالها، وتفakhir باتصاراتها وما كسبته الأمة من اعتزاز وهبة،
وللمتون ومارفيل وكامبيل وتينسون وكبلنج في ذلك أشعار مأثورة.
وقد كان مجال القول أمام أمثال أولئك الشعراء ذا سعة : فتاريخ
الامبراطورية حافل بعظائم جنودها، نعم كانت سياسة بناتها دائما
سلبية لا تلجأ إلى الحرب إلا في الحالة القصوى. ولا تندفع إلى
ميدان القتال لمجرد الرغبة في الظفر والافتخار، ولكن الدولة كانت
دائما عزيزة في وطنية أبنائها وقوة أسطولها، وقد كسب لها جيشها
وأسطولها انتصارات باهرة خالدة، ودوخ أبطالها أمثال كرومويل
ومليرا ونلسون وولنجتون الأهم، وأعلوا كلمتها فوق كل كلمة.
ولا يستأثر الشعر دون النثر بحديث الحرب ووقائعها وأبطالها
بل هناك كتاب موزى عن نلسون ومقالات ما كولي عن كليف
وهستنجر وفردريك الأكبر، وتاريخه وتاريخ جيون، كل هاتيك
حافلة بالوصف الدقيق البليغ لشتى المواقع والحروب، هذا إلى ما في
مختلف القصص من ذلك، ولا يكاد يكون في العربية من مثل ذلك
سوى بعض خطب الإمام علي بن أبي طالب، ورسائل في بعض

ظهر أثرها في الشعر : فهدد لمعاوية وحزبه، ومناصر لبني هاشم أو
مناصب لهم. ومفاخر بكرب أو بتغلب أو معير لهذه أو لتلك، إلى
عهد بشار الذي يتمدح - على كونه من الموالي - بالنغمة المضربة التي
تهتك حجاب الشمس؛ وظل الشعراء الذين يمدحون الخلفاء
والأمراء والقواد يمدحون بلاءهم في الحروب، لا ينسون أن
يدكروا مفاخر قبائلهم من قبل وبلاءهم في الوغى، فإذا مدح
الشاعر الحجاج ذكر تقيفاً أو عبد الملك ذكر أمية، وظل الشعر
العربي دائما يردد ذكر بني مطر وبني شيبان وبني تونخ وبلاء كل
أولئك في الحروب، وكان التساجل بين الشعريين وأنصار العربية
فلم يكذب يترك أثرا في الشعر العربي، وحتى المتنبي يحفل شعره بذكر
قباتل من مدحهم على التوالي، رغم تعصبه للعربية، وطول تألمه من
أن يرى عرباً ملوكها عجم

.. بجانب تلك العاطفة القبلية تمت تدريجاً عاطفة أخرى هي الرابطة
الاسلامية، إذ تمكن الاسلام من نفوس معتقبة ومجتمعهم تمسكت
أحله محل القومية، وترددت تلك العاطفة في أشعار الشعراء الممجدين
لبلاء الخلائف والأمراء في دفاع أعداء الملة، وكان للاسلام في أول
ظهوره عدوان كبيران : الوثنية وزعيمها فارس، وقد فرغ من شأنها
عاجلا، والنصرانية وممثلتها الدولة الرومانية، وقد ظل جهادها دائما
من أول مهمات الخلفاء وولاية الثغور، وظلت حربها من أهم ما يشغل
بال المسلمين ويغذي عاطفتهم المشتركة وشعورهم القومي؛ ويتجلى
أثر تلك الحروب بين الدولتين، أو بين الديانتين، في أشعار أبي تمام
والبحتري والمتنبي؛ ولما أعيت الدولة الرومانية الحيل استنجدت
بغيرها من أمم النصرانية، فكانت الحروب الصليبية، التي ظهر
أثرها في شعر شعراء مصر والشام، ومن ذلك قول البهاء زهير في
السلطان الأيوبي :

فابلق رسول الله أن سمي حتى يرضى الاسلام من نوب الكفر
وأقسم إن ذاق بنو الأصفر الكرى فلا حلت إلا بأعلامه الصفر

وبلغ المسلمون المبالغ في تنون الحرب البرية والبحرية، وعندهم
أخذ الصليبيون، ومن لغتهم نقل الفريون كلمة الأميرال أو أمير
البحر وغيرهما من مصطلحات القتال، وحفل شعرهم بوصف المعارك
والجيوش، وما توقعه بأرض العدو من دمار، كوصف أبي تمام
لتخريب عمورية، ووصف الأساطيل؛ والمتنبي هو أصدق وصافي
الحرب في التأخرين وأروعهم لأنه كان يصف ما يميل إليه بطبعه
وما يمارسه ويشاهده بنفسه، ولا تكاد ترتوي منه لفته، ومن ثم
لا تقل أشعاره الحربية عن أشعار الجاهليين والاسلاميين صدقا وظانة

الخلفاء إلى ولايتهم ينهونهم أن يؤذوا المسلمين أو يعيشوا في الحرث والنسل، وخطب بعض القواد كذلك المنسوبة إلى طارق بن زياد والتي تفيض بلاغة وشجاعة. ولا غرو فقد كان للشعر دائماً التقديم على النثر، وقد ظل طويلاً يستأثر دونه بالحفاوة

ولم يقتصر شعراء الانجليزية على نظم القصيد في تمجيد انتصارات وطنهم وعظائم أبنائهم، بل التفتوا - كدأبهم في كل فنون القول - إلى الماضي وإلى الخارج، ونظموا في المواقع التاريخية والحرفية، إرضاء للفن وتسريحاً للخيال وتنشيطاً للفكر، فوصف تيسون آخر معارك الملك آرثر وصفاً أصبح من ذخائر الأدب المعدودة وآثاره السائرة، أودعه كل مقدرته على تجسيم الوصف وخلق المنظر الكامل بدقائقه وألوانه وأصواته، ونظم هاردي قصائد شتى في حروب نابليون والثورة الفرنسية، وكان له بحروب نابليون غرام كبير لقرب عهدنا منه واشتراك بعض أقربائه فيها، وفي تلك الحروب نظم ملحمة الكبيرة التي تعد أكبر آثار الشعر الانجليزي الحديث، وفيها يتقل بين شتى المناظر والأوصاف والنظرات والتأملات

ولم يغفل الأدب العربي من ذم للحرب ودعوة إلى الاخاء، ومن آثار ذلك أبيات زهير بن أبي سلمى المعروفة، من معلقته حيث يمدح السبدين اللذين أصلحا بين عبس وذيان بعد ما تقانوا، ويستطرد إلى قوله: «وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم»، غير أن ذلك قليل نادر. وقد كان الجهاد دائماً شعار الدولة الإسلامية، وكان النزاع والغلاب دأب أمرائها، وبذلك تفاخر فرسانها وبه امتدحهم مادحهم من الشعراء، وظل السيف والرمح والبنود والخيول في شعر شعراء العربية مرادفات للفر والمجد والغلب والسيادة، ولم يغفل الأدب الانجليزي من محبذين للحرب متعاضين عن مغائباتهم ككتيسون الذي كان يرى الحرب وسيلة لا غنى عنها من وسائل العمران وتطهير النفوس من خوائب المادية والترف والانانية، غير أن الأدب الانجليزي أغنى بآثار النظرة الانسانية، التي تغض الحرب وتصور بشاعتها وبلاياها.

ففي قصيدته «البطولة» يقول كوبر معرضاً بملوك فرنسا: «أيها الملوك الذين يستهويكم المجد وتؤيدون بالدم دعواكم، وتهوون بالضربة ثم تبررونها بالدفاع عن النفس، المجد بغيركم والحق ذريعتكم، تسكن عبر النهر الذي يحد ملككم الحق، ويربكم مدى ما يجوز لكم أن تنشروا عليه حكمكم، أمة لا مطمع لها في تاجكم، حريصة على السلام، سلام جيرانها وسلامها، ولكن يا لشوم طالع تلك الأمة، وياشد ما تقاضاها جريرتها الوحيدة، جريرة مجاورتها لياكم، أما

هي إلا أن تنطلق الأبواق حتى تزحف كتابكم إلى الخارج شاقة طريقها وسط المحصول الناضج، يطأون في كل خطوة حياة جماهير وخبز أمة، فالأرض أمامهم جنة يانعة، وهي خلفهم ياب بلقع، وفي قصيدته عن موقعة بلنهايم التي كسبها القائد النابغة ملبراء يصف سوذي شيخاً ألمانيا جالسا ذات مساء أمام كوخه في أرباض البلدة التي دارت حولها رحى المعركة، بعد جيل من حدوثها، وحفيدها يلعبان حوله، فإذا الطفلة ترى أخاها يدحرج شيئاً مستديراً قد غثر به بجانب الجدول، فتناول الشيخ ذلك الشيء والطفلان مشرئبان إليه يريدان أن يعلما ما هو، حتى هو الجد رأسه قائلاً. هذه جمجمة مسكين سقط يوم النصر العظيم، وكثيراً ما أغثر بهذه الجمجم في الحديقة، وحين أحرث الحقل كثيراً ما يثيرها الحراث من التربة، ولا غرو فقد سقط آلاف مؤلفة في ذلك النصر العظيم. فيتسامل الطفلان بفارغ الصبر عن تلك الحرب وسبب تناحر الفريقين، فيقول جدما: شئت الانجليز صفوف الفرنسيين، أما سبب ذلك فلا أعلم، بيد أن الجميع يقولون إنه كان نصراً عظيماً. ويمضى واصفاً كيف أحرقت مزرعة أبيه وألجئ إلى الفرار وكيف هلكت الحبالى والرضع، ثم يردف قائلاً: ولكن مثل هذه الاشياء يا ابني تحدث في كل نصر عظيم، فالمجد لدوق ملبرا ولا ميرنا الطيب بوجين، فصيح الطفلة: كيف؟ لقد كان ذلك أمراً إداداً فيراجعها الشيخ. كلا يا بني بل كان نصراً عظيماً، وكل إنسان أطرى الدوق الذي كسب تلك الموقعة، فصيح الطفل. وماذا كانت فائدة كل ذلك؟ فسلم الشيخ تسليم العاجز قائلاً: أما ذاك فلا علم لي به، بيد أنه كان نصراً عظيماً.

فآثار الحرب وأحاديثها على مختلف ضروبها ظاهرة محسوسة في جوانب الأدبين، ولا ندحة من أن تكون ظاهرة محسوسة فالحرب ناحية من نواحي حياة المجتمع الانساني جليلة الخطر حاضرة الأهمية دائماً، تصل برفاهية الأفراد ومستقبل الجماعات ومصائر الدول والمدنيات، وبالحرب تتعلق كل معاني القوة والحرية والذود عن الحقيقة، وقد كانت الحرب أحياناً ممهدة لانتشار الحضارة وازدهار الثقافة، كما كانت إذا استفحلت وبالا على العمران وبلاد على الانسان بيد أنها قد تركت في الآداب تلك الأوصاف الممتعة للملابسات الحروب ومشاهدها وأعقابها، وقد خللت هذه الآثار الأدبية الزائفة عبرة ومتاعاً للآلآباب، بعد أن غبرت تلك الحروب وهدأت تلك المطامع والثارات، وذهب مسعروها ومن اصطلوا بها واستوى في الترب القاهر منهم والمقهور؟

فخرى أبو السعود